هشام الصباغ
باحث لغوي

صاحب «أيام الكويت»

الشيخ الأديب أحمد الشرباصي

■ مداد قلمه يستجلبه من ينابيع العاطفة والشعور، فتجد كلماته تكتسي بألوان الأزاهير، وعباراته تناجي المبادئ والأفكار، وتستثير كوامن الإحساسات النبيلة المتصلة بالعقيدة والأخلاق.

■ شعلة معرفة وهاجة، ذو حصافة نادرة وعلم واسع، له قدرة فائقة على ارتجال الأحاديث وفي مختلف الموضوعات.. متمكن من التأليف المتنوع الذي كان منه: البحوث العلمية المفيدة، المحفوظات، حديث الرحلات، مدارسة القرآن الكريم، إضافة إلى ما قدمه من أحاديث إذاعية ومقالات صحفية من يطلع عليها يعرف مدى الجهد الذي كان يبذله هذا الرجل.

■ كان، رحمه الله، ذا نفس متواضع، لا يرى لنفسه فضلا أو أثر علم: «أنا نفسي في الواقع محتاج الآن إلى من يعلمني. لقد تكلمت كثيرا، فلأسكت قليلا. نفسي حائرة في أفكارها، فلأحاول أن أجمعها. وأراني مشتتة عن الحياة والأحياء وعن الأولى والآخرة وعن التفكير والتطبيق فدعوني، دعوني في غمرتي أيها الناس لقد سمعتم مني طويلا وما أحوجني اليوم الى أن أسمع.. يا ويلنا إن كانت بضاعتنا كلها كلاما، ويا ويل من يشغله طول الكلام عن حسن الفعال، ويا ويلنا إن لم نسر على الطريق.. إذن فقد ضاعت الأولى والآخرة وقد خسرنا العاجلة والآجلة وذلك هو الخسران المبين.. نعوذ بالله رب العالمين».

■ مواهبه تفجرت في وقت مبكر، ولفت الأنظار إليه صغيرا.. فبينما كان طالبا يافعا غضا لم يزل في مرحلة الطلب لم يحصل بعد على شهادة الثانوية، أتى على نشاطه أئمة الفكر واللغة والبيان، وأدهش بأسلوبه كبار كتاب عصره حين قرأوا ما خطته أنامله، ما جعل الصحف والمجلات تفتح له أبوابها لينشر إنتاجه بين كبار كُتّابها.

■ تزامن ما سبق مع إبهاره متذوقي الشعر وقارظيه حين وجدوه ملك أزمة المعاني وامتطى ظهور القوافي جنبا إلى جنب مع إمساكه بناصية الكلام وسيطرته على أسماع مريديه بحسن إلقائه للخطب وبلاغة تعبيره.. إنه الشيخ الأستاذ الأديب الشاعر أحمد الشرباصي.

النشأة والتحصيل العلمي

■ ولد الشرباصي، واسمه أحمد الشربيني جمعة الشرباصي في ١٧ نوفمبر ١٩١٨م، في «البجلات»، وهي قرية مجاورة لـ«الزرقا»، لكنها تابعة لمركز «دكرنس» بمحافظة الدقهلية بمصر.. يقول الشرباصي بنفسه عن نشأته: «كنت غلاما أحاول حفظ القرآن الكريم لأنتسب إلى أحد المعاهد الدينية التي تتبع الأزهر؛ فقد عاهد والدي ربه أن يجعلني وقفا على طلب العلم، كما كانت العادة شائعة عند أهل الريف. وبعد أن حفظت القرآن، رحلت من قريتي إلى معهد دمياط الديني، ولبست العمامة والكاكولة مع أن عمري لم يتجاوز يومئذ الثانية عشرة».

■ ترك الشرباصي ذكرى طيبة بين أساتذة معهد دمياط الديني بما ملكه من ذكاء واستعداد أدبي وهمة طموحة، وبعد أن أنهى دراسته بالمعهد التحق بمعهد الزقازيق الثانوي، وحصل على ثانويته الأزهرية عام ١٩٣٩م، ومن ثم التحق بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، وكان في مقدمة الطلاب طوال فترة دراسته، حتى حصل على الشهادة العالية عام ١٩٤٣م، وكُرّم مع أوائل الجامعات في حفل أقيم بقصر رأس التين بالإسكندرية، ثم نال شهادة العالمية الأزهرية وإجازة التدريس عام ١٩٤٥م.

■ بعد تخرجه اتجه إلى التدريس فترة من الزمن، ثم أسندت إليه فيما بعد وكالة رواق الأحناف بالأزهر، وخلال وكالته للرواق ارتحل إلى الكويت مبعوثا من الأزهر لعام عاد بعده لتُسند إليه أمانة لجنة الفتوى بالجامع الأزهر، ثم انتدب لتدريس الشريعة الإسلامية في معهد الخدمة الاجتماعية بالقاهرة سنة ١٩٥٨م، ثم عمل مستشارا لهيئة الرقابة على المطبوعات ومراجعة الكتب الدينية.

■ لم يمنعه عمله من تحقيق طموحه الأكاديمي ومواصلة دراسته العليا، فأكملها وحصل على شهادة الدكتوراه في الأدب والنقد عام ١٩٦٧م، عن أطروحة تحمل عنوان: «رشيد رضا صاحب المنار»، وبعد حصوله على الدكتوراه عين مدرسا بالكلية التي تخرج فيها، وهي كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف.

مؤلف في «سن غضة»

■ بدأ نشاطه العملي وهو لم يزل طالبا في المعهد الديني، فأخرج وهو في سن

صغيرة كتاب «حركة الكشف». ولم يكن الكتاب مقالات متناثرة في موضوعات مختلفة تمتلئ بأساليب الإنشاء المحفوظة التي يكتبها غالبا الشداة والناشئون، لكنه كان هادفا تحدث فيه عن مبادئ الكشافة ونظمها وشاراتها، واتفاق كثير من مبادئها وتعاليمها مع تاريخ العرب وأحكام الإسلام.

■ استقبلت الأوساط «حركة الكشف» استقبالا حسنا، وحظي مؤلفه بكلمة من الأديب الكبير محمد سعيد العريان في مجلة «الرسالة»، ومنذ ذلك الحين فتحت الصحف والمجلات صفحاتها للأديب الواعد الطالب بمعهد الزقازيق الثانوي، مما شجعه على أن يردف كتابه بآخرين هما: «محاولة»، و«بين صديقين»، استحق عليهما ثناء النقاد على صفحات «الأهرام» و«الرسالة»، ثم أخذت مقالاته تترى على صفحات مختلف المجلات.

«الخطب الشرباصية»

■ نشاطه الخطابي بدأ منذ أن وطأت قدماه القاهرة، وظل ٨ أعوام يخطب في مسجد المنيرة بالقاهرة، إذ كان خطيبا مفوها يملك أسماع مستمعيه وأفئدتهم ويسيطر على مشاعرهم بأدائه الفذ ونبراته المؤثرة وعلمه الواسع.. ذلك النشاط الواسع دفعه للنزول إلى ميدان الإصلاح الاجتماعي: يكشف خطأ، أو يصحح مفهوما، أو يرشد حيرانا، فأصبح يومه لا يخلو من محاضرة أو درس.. وقد جمع الشرباصي بعضا من نشاطه الخطابي في كتابه «الخطب الشرباصية» في خمسة مجلدات.

الشرباصي.. والكويت

■ انتدب الشرباصي مدرسا من الأزهر للعمل في دائرة معارف الكويت لعام دراسي واحد، لكن معرفته بالكويت سبقت سفره إليها، إذ كان يزامل الأستاذ عبدالعزيز حسين، رحمه الله، في كلية اللغة العربية في الأزهر.. وحينما أصبح حسين مسؤولا عن بيت الكويت بالقاهرة، عزم على إصدار مجلة «البعثة»، فدعا الشرباصي للمشاركة فيها بالكتابة، فلبى منذ اليوم الأول لصدورها، ولم تنقطع مقالاته لأي سبب حتى آخر عدد لها (يناير ١٩٥٤م).

«أيام الكويت» أو «جراب الحاوي»

■ كان الشرباصي نشطا إلى أبعد الحدود، لا يفوّت أي فرصة للكتابة عما شاهده ورآه في أسفاره، ومن ذلك كتاباه: «أيام الكويت» و«عائد من باكستان».. والمطلع على «أيام الكويت»، الذي ألفه عقب انتهاء مهمته فيها مدرسا بالمدرسة المباركية، يستشعر مدى نشاطه وحركته.. والكتاب شبيه بما يسمى: «جراب الحاوي» ففيه كل شيء: من التاريخ إلى الحكاية إلى القصيدة إلى المعلومات العامة، كان يسير في الطريق فيلتقط ما يعن له، حتى إذا عاد إلى القاهرة نفض ما في الجراب ونسقه، وجعله في كتاب هو: «أيام الكويت».

■ يقول الشرباصي عنه: «شاء الله ألا أظهر كتابا عن الكويت، رغم صلتي الأدبية القديمة بها وبأبنائها، إلا بعد قضاء عام بين ربوعها؛ ولعل هذا من الخير، فأنباء الرواية والاستماع غير أنباء اللقاء والاجتماع».

مؤلفات

■ تعددت مؤلفات الشرباصي التي قدمها للمكتبة الإسلامية وتنوعت حتى بلغت ما يربو على ١٠٠ كتاب، منها: «موسوعة أخلاق القرآن» (سبعة أجزاء)، و«يسألونك» (سبعة أجزاء)، و«موسوعة الفداء في الإسلام» (٣ مجلدات)، و«أسماء الله الحسنى»، و«أمير البيان شكيب أرسلان حياته وأدبه» (أطروحة الماجستير - مجلدان)، و«رشيد رضا صاحب المنار» (أطروحة الدكتوراه - ٣ أجزاء).

■ كما شارك في الأدب المسرحي، وكان من أوائل من كتبوا المسرحيات الإسلامية، التي استلهمت أحداثها من وقائع التاريخ الصادقة، ملتزما الفصحى فيما يكتب، ومنها: «مؤمنة مجاهدة»، و«مولد الرسول»، و«مشرق النور»، و«الحاكم العادل»... إضافة إلى ما ينيف على المئة كتاب في الأدب والأخلاق والفقه والتاريخ.

إسهاماته مع المجلة

■ للشيخ الدكتور أحمد الشرباصي ما يزيد على الثلاثين مساهمة مع المجلة، جاءت تحت عناوين (أمثلة): «تفسير المنار بين الأستاذ وتلميذه، ع:٥١»، و«رشيد رضا وإعجاز القرآن، ع:٥٧»، و«المجاهد حامل التراب عاصم بن عمرو التميمي، ع:١٣٩»، و«له الأسماء الحسنى (الوكيل، الجبار، العزيز، الرحمن الرحيم)، ع:١٥٠ و١٧٨ و١٨٢ و١٨٧»، و«حديث القرآن عن الحج، ع:١٦٨»، و«محمد ﷺ في القرآن الكريم، ع:١٩٥»...

وفاة الشرباصي

■ اشتد عليه المرض في أيامه الأخيرة لكنه لم ينقطع عن التأليف، رغم عجزه عن إمساك القلم، لكن رغبته في ألا يدع شيئا في صدره من علم يكتمه عن الناس جعلته يملي على تلامذته بعض مؤلفاته مثل «موسوعة أسماء المصطفى»، لكن العقل المتوهج انطفأ، والقلم السيال توقف، ولقي الشيخ ربه في ١٤ أغسطس ١٩٨٠م، تاركا تراثا ثريا وذكرى عطرة.

المصادر والمراجع

- كتاب «أعلام وعلماء كتبوا في الوعي الإسلامي».
- كتاب أيام الكويت.
- موقع تاريخ الكويت.
- إسلام أون لاين.
- الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).